إصبع الأصابع
نشوان زيد علي عنتر

إمبراطـور الأدغـال

(روايـة)

بقـلـم :

نـشـوان زيـد عـلـي عـنـتـر

٢٠٢٣م

الإهداء

إلى أدبينا الكبير علي أحمد باكثير الذي رفع إسم بلدنا عاليا في أرض الكنانة مصر و العالم العربـي

المحطة الأولى

يوم الحساب

ظل عابس الوجه في تلك الليلة الظلماء الخالية على إستحياء من القمر إلا من نجيمات ناصعة البياض إنعكس ضوئها البراق على مياه النيل الممزوجة بأنوار ناطحات السحاب القاتمة و غطت بوجودها على الأحياء الشعبية الفقيرة دون أن يستيقظ كما هو عادته عندما ينام نوم الذئاب المحترسة من أي خطر يداهمها مهما كان حجمه رغم أن الشعب المصري برمته حكومة و شعبا ، موظفين و عمال و رجال أعمال ، أغنياء و فقراء ، قضاة و وكلاء نيابة بمن فيهم النائب العام و المحامون و ضباط الأمن و الشرطة و الجيش ....الخ لا يجرؤن على محاربته و مواجهته و لو بأدنى شفة و ذلك أضعف الإيمان ، و ما زاد الطين بلة إنهم ما إن يسمعوا بإسمه أو يرد خاطر في عقلهم حوله يصابون بحالة من الذعر و الهلع و تقشعر أبدانهم لذلك ، كيف لا و هو عبداللطيف الرشيدي رجل الأعمال الكبير و أحد مراكز القوى في مصر و ديناصورات الفساد العتيدة فيها التي لم يزحزحها أحد قط من عرشها المخملي القائم على أرواح و أجساد المضطهدين رجالا و نساء تحت قدميه و الملطخة بدمائهم البريئة حيث لم تقم لهم قائمة ضده حتى بإستثناء رصاصة يتيمة كادت أن تقتله بعدما إستقرت في منطقة دقيقة واقعة بين البطن و الخصر و التي إنطلقت من

مسدس أحد أبناء ضحاياه ، شاب في مقتبل عمره ، صعيدي من المنيا مسقط رأس عميد الأدب العربي طه حسين حيث تخرج من جامعتها مهندسا مدنيا مفعم بالحيوية و التفاؤل و الثقة بمستقبل أفضل بعدما إكتملت فرحته إثر إقترانه من إبنة عمه الجميلة التي يحبها حب العبادة قبل أن ينهار و يتحطم كل هذا عندما رآه يستولي على أرضه و يقتل أباه و أمه و زوجته التي تبخر جمالها و تشوه وجهها الصبوح البشوش بعدما أحرقوا منزلهم الريفي المتواضع المصنوع من الطين و سعف النخيل لتلفظ أنفاسها الأخيرة و جنينها أمامه ، و رغم هول الصدمة المريعة تمسك برباطة جأشه و سلك الطرق القانونية لمعاقبته دون جدوى ، فإستنجد بالشرطة ثم النائب العام و بعد ذلك رفع دعوى ضده في المحكمة لكنهم يحركوا ساكنا و لم يجرؤوا على إستدعائه إلى درجة أن القاضي كان يؤجل جلسات المحاكمة كثيرا إلى أن حطمت الرقم القياسي في تاريخ التأجيلات القضائية حيث وصلت إلى أربعين تأجيل كما هي عادة قضاة مصر المرتشين الفاسدين الذين يريدون خدمة المتنفذين الماثلين أمامهم هذا إذا مثلوا أمامهم و في نفس الوقت إجبار المظلوم على الإستسلام للأمر الواقع كما وصفهم الفليسوف قاسم أمين بالقضاة الذين يحكمون بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل .... و غيرها من الأمور التي جعلته يضيق ذرعا منهم و لا يثق بهم على الإطلاق ، و بعدما بلغت القلوب

الحناجر فيه حتى بدأت تدور في مخيلته فكرة القتل و الإنتقام منه ليأخذ بثأر زوجته و إبنه الذي لم ير النور بعد و والديه مرارا و تكرارا إلى أن نجح في مراده بعد محاولات يائسة من قبل عندما تنكر في هيئة بستاني عمل حديثا لديه دون أن يجمع السيد عبداللطيف عنه كافة المعلومات التفصيلية كما هي عادته كإجراء إحتياطي يتعلق بأمنه الشديد لتكون هذه الغلطة البسيطة التي وقع بها بالف و ترميه بسهولة إلى قعر الفخ الذي نصبه القاتل له عند الشرفة دون أن يبالي بمصيره الذي قد ينتهي على حبال المشنقة بعد محاكمة مدنية صورية حكمت عليه بعد ثلاث ثوان من إفتتاح الجلسة من المحاكمة دون أن يستمع إلى ممثل الإدعاء أو محامي الدفاع بعدما عرف من يكون المجني عليه و الذي بعدما حدث و نجا منها بأعجوبة عبر العملية التي أجريت له دون أن تمنعه من الإصابة بشلل نصفي أقعده على السرير دون حراك ، فأصبحت تنتابه كوابيس يومية تتربص بمنامه و تعج بمناظر القتل و الدماء التي إقترفها بحق ضحاياه لتتحول إلى رصاصات قاتلة تخترق جسده بلا هوادة ، و أتته في المنام واحدة منهن فإستيقظ فجأة منتفضا من الخوف ، فلا يجد قبالته سوى إمرأة محجبة ملائكية المنظر تركع و تسجد في صلاتها بخشوع تام ، في البداية ظنها المربية و الخادمة في بيته أم رياض و أتت لرعايته :

(أم رياض ، ماذا تفعلين هنا ؟ !أنا لم أناديك أبدا حتى تأتي إلى هنا ؟!!)

ما إن إنتهت من الصلاة و نهضت حتى أصابته الدهشة عندما رآها فلقد كانت زوجته الشابة سحر الرشيدي :

(سحر ؟ !أهذا أنت ؟ !!)

(بلى يا زوجي العزيز)

(قلت العزيز ، هه ؟ ... !ما علينا ، ماذا كنت تفعلين الآن ؟ ثم لماذا ترتدي الحجاب مثل أم رياض ؟ هل صرت عجوزا بهذه السرعة ؟!!!)

(أبدا ، الحجاب لبسته للصلاة ، فالمرأة لا يجوز لها أن تصلي إلا بالحجاب)

(هذا صحيح ، فإذا المرأة لم تتحجب و تستر كامل جسدها خلال الصلاة ، فصلاتها باطلة)

(أجل ، كم أنت واسع الاطلاع و لاسيما بالأمور الفقهية يا عزيزي)

(طبعا ، و أعرف أيضا أنك صليت صلاة الفجر في موعدها ، أليس كذلك ؟)

(أجل)

(أراك منذ زواجنا و أنت تواظبين على الصلاة بإستمرار لماذا ؟)

(حتى لا تنقطع علاقتي بالله ، و نظل على تواصل معه ، حتى يرضي عنا و يزيل عنا الهموم و يقوي إيماننا أكثر)

(لقد فهمت)

(لا تقلق يا عزيزي ، فأنت بإمكانك أن تصلي و أنت مضطجع على السرير .تستطيع أن تفعل ذلك)

(لم أؤديها و أنا سليم الجسد ، فما بالك و أنا بهذا الشكل ؟)

(.....؟!)

(لا تستغربي ، فأنا لم أصل أبدا مذ كنت في المرحلة الثانوية و الفضل يرجع إلى والدك هو الذي كرهني في الدين و الصلاة و الحياة بسبب أخطائه التي ارتكبها بحقي)

ما إن سمعت هذه الإهانة حتى بلعتها و لم ترد عليها ، بل لم تجرؤ على ذلك بعدما حاولت عبثا فعل هذا فيما مضى و أدركت أن الرد عليه لن يجدي نفعا معه ، بل هو الجنون بعينه ، رغم أنها إضطهدها و سحق روحها و أهان كرامتها منذ أن زج بوالدها إلى غياهب السجون متهما إياه بسرقة أموال الشركة ثم إخراجه من هناك بأمر منه بعد توسلت و أخيها الكبير له و عفا عنهما لشتمه و محاولة الإعتداء عليه داخل مكتبه ليضربهما و يضعهما في السجن أيضا ، و لكنه ما لبث أن مات كمدا بعد مرور ثلاث دقائق من ولوجه باب بيته أمام ناظريها ثم طردها و شقيقها مروان من الشقة تحت تهديد الشرطة في ذلك السبت الكئيب من صيف عام ٢٠٠٦م حيث إكتظت العمارة بساكنيها و سكان الحي الواقعة فيها (العمرانية) ليتطلعوا بفضول إلى ما حدث دون أن يحركوا ساكنا من أجلها

آنذاك و أصبحت شقتها ملكا له رغم أنها لاتزال بإسم والدها بموجب عقد الملكية الخاص به ، ليكون مصيرها المحتوم الإقامة في بيت أخيها مع عائلته دونه أن تتحمل البقاء بين جدرانه الكئيبة بعدما عانت الأمرين من كنتها الرافضة لوجودها الدائم في الشقة حيث كانت تتشاجر دوما مع زوجها بسبب هذا الموضوع ، و ما زاد الطين بلة إغتصابها من قبل بائع للوجبات السريعة بعدما تأكد من عدم وجود أحد بالمنزل سواها ليرتكب فعلته الشنعاء و يغتصبها في عقر غرفتها حيث لحقها إلى هناك عندما ذهبت لإحضار النقود و دفع قيمة شطائر الهامبرجر التي طلبتها عبر الهاتف ، رغم ذلك كتمت سر هذه الكارثة الماسأوية و الهاتكة لعرضها و شرفها برهة من الزمن قبل ان ينكشف سرها الدفين بعد ثلاث أشهر مما حدث بعدما عرف شقيقها مروان و خطيبها ماهر أنها حامل و هي لم تتزوج بعد ، فإنهالا عليها لكما و ضربا دون رحمة أو شفقة ، و سرعان ما إنتشرت قصتها بين الناس إنتشار النار في الهشيم و دفعت مروان إلى قتلها لغسل شرفه و محو عاره أمام الجميع ، لكن سحر نجت و نفذت بجلدها بعد فرارها من بيت أخيها و هي حامل بإبنها الغير الشرعي في شهره الثالث بلا مأوى و لا عمل بعد طردت من المكتبة جراء ما جنته رغما عنها و لاسيما أنها خريجة آداب جامعة القاهرة قسم المكتبات رغم حصولها على هذه الوظيفة المتواضعة بالواسطة بعد تخرجها مباشرة عبر

زوجها الحالي ، و بلا مال تلتحف الشوارع بعيدة عن أعين المارة ليلا لتجتمع هذه الأمور و تشكل كوكتيلا هائلا من الهموم قابل للإنفجار في أية لحظة ضغط عليها و دفعها في الأخير إلى الإنتحار ، فتقدم على رمي نفسها من فوق كوبري النيل قبل أن يتم إنقاذها من الغرق و نقلها إلى المستشفى و هي تقطر من أحشائها دما غزيرا قبل أن يتوقف عن النزيف بعدما إسقطوا الجنين دون أن إسعافهم العاجل لها بهذا الشكل زاد من كآبتها لأبعد حد ، و لكنه في الوقت ذاته أيضا عرفها على شيرين إبنة زوجها الحالي التي أنقذتها من الغرق ما بدد هذا الشعور اليائس من مخيلتها المثخنة بالجراح نوعا ما ، سيما و أن شبح خوفها من رؤية شقيقها و خطيبها مجددا ظل يلاحقها ليل نهار ، فتحملت قسوة إهانات زوجها لها و أبيها ، إلى حد تلقي جسدها الضئيل المتناسق الضربات و الصفعات الموجعة منه و إجبارها تحت وقع طعناتها الثاقبة على تقبيل حذائه ثم شدها من شعرها ، .....الخ .

لكن رغم ما سبق حماها و إنتقم لها من الذين إعتدوا عليها كالذي إغتصبها حيث أمر رجاله في مديرية الأمن بالجيزة بالبحث عنه حيا أم ميتا و إلقاء القبض عليه و إعدامه فورا بعد محاكمة صورية بمحكمة جنوب الجيزة الإبتدائية و صدور حكم إدانته بالجرم المشهود في الدقائق الأولى من جلستها الوحيدة ، إضافة إلى إعتقاله لشقيقها و خطيبها و تأديبهما و

إجبارهما على الإعتذار لها عما إقترفاه بحقها رغم مسامحتها السريعة لهما على ذلك ، علاوة على أن ما زاد من محبته المطلقة لها شبهها المتطابق لوالدته الراحلة من حيث أنفها الأخنس المدبب و شعرها الأسود الطويل المستوي مع وجه ممتلئ و عجز عريض و بطن نحيل إلى حد ما .

المحطة الثانية

من أكون بإعتقادكم ؟

سرعان ما عادت لسماع زوجها و هو يتحدث سلبا عن والدها فتبادره بسؤال مهذب ردا عليه :

(حبيبي ، أراك تتحدث كثيرا عن أبي بسلبية تامة و بمنتهى الدقة و كأنك تعرفه معرفة يقينية مسبقة ؟)

(طبعا اعرفه ، أليس أخي الكبير و كلانا تربى في بيت واحد .....)

(قلت أخاك الأكبر ؟!!)

لم تستوعب سحر جيدا آخر جملة قالها من هول المفاجأة التي إعترتها عند سماعها لها لكشفها سر العلاقة بين أبيها و زوجها .

(أجل ، أخي الأكبر !ما المشكلة في ذلك ؟!.....)

(هذا مستحيل و غير صحيح البتة .....)

(غير صحيح ؟ !الماذا ؟ !هل أنا أكذب عليك ؟!!!)

(لا لا يا عزيزي ، و إنما أقصد أنه من غير المعقول أن يكون لأبي شقيق حي يرزق حتى هذه اللحظة .....)

(أنها كذبة إختلقها ودسها في عقولكم حتى ينكر وجودي أمامكم لغرض في نفس يعقوب سوف أشرحها لك الآن)

(هل أنت عمي حقا ؟! ... و هل لديك ما يثبت أنك شقيق والدي ؟!!!)

فطلب منها أن تحضر من جيب معطفه الأرجواني المعلق على مشجب غرفته بطاقته الشخصية الأصلية و نفضت عنها غبار السنين ، فما لبثت أن أخذتها و قراءتها بصمت سرعان ما تحول إلى دهشة عارمة إعترت وجهها عندما إكتشفت أن إسم زوجها الحقيقي هو عبد اللطيف أحمد البكري مطابقا لإسم والدها درويش أحمد الرشيدي عندما قارنت بطاقته التي كانت محتفظا به منذ وفاته ببطاقة زوجها و تكتشف أن كلاهما توأمان و ولدا في سنة واحدة (١٩٥٠م)

(يا الكارثة ؟!!!)

(ما وجه الكارثة في ما قلته ؟ !أنها الحقيقة ، فوالدك شقيقي من لحمي و دمي ....)

(و هذه هي الكارثة !!! إنني متزوجة من عمي الذي هو في نفس شقيق والدي ، أي أنني اغضبت الله بإرتكابي فعلا محرما لا يرضيه و يعاقبني على ما فعلت ، يا إلهي !!!)

(هل زواجك مني حرام ؟ !)

(طبعا حرام و مخالف للشريعة الإسلامية لأنه لا يجوز أن تتزوج بنات أخيك أو أختك)

(و ماذا في ذلك ؟ !!!)

(ماذا في ذلك ؟ !!! أنها خطيئة و كبيرة من الكبائر كما تقول الشريعة ، و لقد إرتكبتها ، فسيكون مصيري نار جهنم ....ماذا أفعل يا ربي ....اهئ اهئ اهئ ....)

(لن تدخلي النار يا عزيزتي ، لأن الجنة و النار بيد الله لا بيد الشريعة و رجالها المعتوهين من فقهاء الظلام ، فيدخل من يشاء النار حتى و لو كان مؤمنا صالحا و كانت خاتمته صالحة و يدخل من يشاء الجنة و لو كان ملحدا ، فهدئي من روعك و لا تجزعي هكذا ، و لا تعتبري نفسك آثمة في تصرفك هذا لأنك عندما تزوجتني لم تكوني تعرفين أبدا من أكون ، لذا سوف أسرحك و أعطيك حريتك بشرط واحد)

(ما هو ؟)

(أن أروي لك قصة حياتي كاملة)

ما إن سمعت هذه الجملة الأخيرة الصادرة من لسانه المتلهف لمحادثتها بشأن علاقته المشكوك بعائلتها من وجهة نظرها حتى أصبحت أمام خيارين أحلاهما مر ، فلم يكن أمامها سوى الموافقة التي لا تملك حقها حتى الرمق الأخير علها تسبر غورا بسيطا من حياة هذا الرجل الغامض .

المحطة الثالثة

أوجاع الزمن الغابر

قامت سحر بترتيب الوسادة تحت ظهره و إعطائه الدواء المهدئ لآلام الحوض حتى يسترسل في سرد حكايته لها .

ذكر لها في بداية سرده للأحداث أنه و أبوها ينتميان إلى أسرة يمنية الأصل تعرف بعائلة البكري تعود أرومة إسلافها الشوافع إلى محافظة شبوة[1] رغم أن جدهما القريب و تاجر الذهب الفار من وجه الإمام يحيى حميد الدين و جنوده جيشه المتوحشين المتعطشين للدماء بعد إخمادهم بوحشية مفرطة تمرد قبيلته حاشد و زعيمها ناصر مبخوت الأحمر[2] عام ١٩٢٠م عبدالملك البكري عمراني[3] المولد و زيدي المذهب حيث رحل من موطنه الأصلي تاركا زوجته حظية التي تزوجها زواجا مبكرا و ولديه الرضيعين ناجي و ناصر إلى السعودية متخفيا بزي حاج لبيت الله الحرام ، و هناك تعرف على أحد نظرائه المصريين المتعاملين معه في توريد و تصدير الذهب الخام في محله القائم بسوق الملح[4] إبان الإستعمار التركي مطلع القرن العشرين ألا و هو منصور الدمنهوري[5] حيث كان آنذاك يؤدي فريضة الحج مع شقيقته الصغرى فوزية التي ستصبح لاحقا زوجته و أم

---

[1] إحدى المحافظات الجنوبية للجمهورية اليمنية (المؤلف) .

[2] أحد شيوخ قبيلة حاشد في العهدين التركي (١٨٤٠–١٩١٨م) و الإمامي (١٩١٨–١٩٦٢م) و جد رئيس مجلس النواب اليمني و شيخ قبيلة حاشد عبدالله بن حسين الأحمر (المؤلف) .

[3] نسبة لمدينة عمران عاصمة محافظة عمران إحدى المحافظات الشمالية للجمهورية اليمنية (المؤلف) .

[4] من أشهر الأسواق الشعبية في مدينة صنعاء و يقع في صنعاء القديمة قبالة باب اليمن الواقع على شارع الزبيري (المؤلف) .

[5] نسبة لمدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية (المؤلف) .

نجله الوحيد أحمد رغم إغتصابه لها قبل الزواج لشدة جمالها الآخاذ الآسر لقلوب العذارى من أول نظرة و هم حرم و كاد أن يخسر صديقه منصور جراء ذلك و تصل الأمور إلى حد إهدار الدماء بينهما قبل عدوله عن هذا في أخر لحظة عبر إتفاق مبرم يرضي الطرفين دون أن يعرف السبب و إن كان تتمثل عواقبه الوخيمة لاحقا في تعاونهما الوثيق الغير مشروع بتجارة الذهب المهرب من مصر و إليها !

عاشت هذه العائلة المثيرة للجدل على الرغم من أنه يشاع انتمائهم الى فئة الاشراف و لاسيما فرع الحسن بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه في إحدى ارياف البحيرة و لا سيما في مدينة رشيد حيث ورث والده أحمد من والديه و خاله ثروة طائلة مخبأة في سراديب أرضية عميقة لا يعلم مكانها إنس و لا جان نابعة معظمها عن تجارة الذهب المهرب من فلسطين و السودان إلى مصر عبرهم بعلم السلطات الرسمية المحلية و الإستعمارية قبل أن يقلبوا لهم ظهر المجن إثر تبدل المصالح معهم قبيل الحرب العالمية الثانية و يدفعا حياتهم ثمنا لذلك على الحدود الفلسطينية – المصرية عام ١٩٣٣م قبل أن يبددها في ملذاته الشخصية و يغرق في بحر من ديونه المتراكمة عليه و صراعاته القضائية العديمة الفائدة مع أبناء خاله الذين ينازعونه الميراث فيضطر من أجل سدادها إلى رهن ما تبقى من أملاكه و العمل أجيرا في واحدة من الأراضي المملوكة لسليم زكي باشا

أحد اعيان المدينة التي ولد فيها عبداللطيف عام ١٩٥٠م قبيل ثورة ٢٣ يوليو بعامين و التي ملكت والده الأرض التي كان يعمل فيها على طبق من ذهب بعد فرار صاحبها و أسرته و ثروته إلى خارج البلاد كغيره من الباشوات و رجال الطبقة الارستقراطية البائدة إثر سقوط سندهم الأساسي الملك و حاشيته و من بعدهم المستعمرون البريطانيون عام ١٩٥٦م مما اشعره بالرضا و الفخر و الغرور احيانا اعتقادا منه بانه جنى ثمرة تعبه و معاناته عليها ، لكن مساحتها الشاسعة اثارت الاطماع من حولها سواء الجيران أم أبناء خاله ام الدولة التي فرضت عليه ضرائب باهظة على مداخيلها و التي اغلبها غير قانونية و لا يستفيد منها الشعب بتاتا بشيء يذكر وفقا للطريقة الفرعونية[٦] .

كما أن الإنفاق المبالغ للأب على ولديه ليعوضهم عن سنين الحرمان التي تجرع مرارتها من قبل اوغر في صدر ابنه الاكبر شهية الطمع و السعي للاستيلاء عليها لنفسه دون اخيه الصغير إلا و هو عبداللطيف ، فمنذ ان احس والده بنوبة قلبية خفيفة في ذلك الصيف الحار من جراء رؤيته بمدينة القاهرة العاصمة رجال الشرطة يقومون بإغلاق مركز أبو الوفا (كنيته) التجاري المقام في شارع الشواربي و التي تشكل عائداته ٧٠% من ثروته بالشمع الاحمر و تأميمه بموجب قرارات التأميم الصادرة من الدولة

[٦] اسلوب مصري قديم منذ عهد الفرعون سنوسرت الثالث يتمثل في جباية الدولة المركزية للضرائب من المواطنين دون ان تنفق بالضرورة عائداتها عليهم و على الخدمات التي تفيدهم بشيء لتضمن ولاءاهم المطلق لها (المؤلف) .

بعد تبنيها النظام الاشتراكي على خلفية انهيار الوحدة المصرية –السورية عام ١٩٦١م مثل غيرها من المؤسسات و الشركات الخاصة البارزة في حقول التجارة و الثقافة و الصناعة و الفن و السينما التي لم تنجو من شراكها المأساوية حتى وقتنا الحاضر ، حينها ظل طريح الفراش و بلا حركة حيث لم يتحمل صدمة ما حدث و لاسيما انه يصنف في ادبيات الثورة الناصرية[٧] ضمن الطبقات الفلاحية الكادحة التي دافعت عنها الاخيرة بشراسة متفانية ، فازدادت حالته سوءا رغم صموده الاسطوري رغما عنه في وجه اكبر الصدمات الرهيبة التي واجهته عندما كان فلاحا فقيرا يعمل باجرة يومه متحملا كافة اصناف العذاب التي كان يتلقاه من سادته و الامراض و انعدام الرعاية الصحية و الفقر و العوز و الجفاف بما كان يعهده الناس عن الفلاح الصري و جلده و صبره الغريب و عدم تأففه و رضوخه للحاكم بغض النظر عما إذا كان عادلا ام ظالما منذ القدم .

سالته سحر عن أمه صمت عبد اللطيف لبرهة و سرح ببصره نحوها و قد بدأت الدموع تقطر من عينيه مجيبا اجابة يملاها الحنين الى شئ عزيز للغاية على قلبه (امي ....اجمل شئ في الكون ، من اجلها ضحيت بصحتي لكي يعيش نورها في جوانحي ينير حياتي المضطربة قبل ان ينطفئ فجاة اثر تخرجي من كلية الشرطة بأسبوعين (يحرك شعرها) فمنذ ان رايتك في دار الاوبرا بمعية والدك في صيف ١٩٨٤م حتى ادركت ا ن امي قد

[٧] نسبة الى قائد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م رئيس الجمهورية جمال عبدالناصر (١٩٥٤–١٩٧٠م) (المؤلف) .

عادت الى الحياة متقمصة شخصيتك الرائعة فأنت تشبهينها في كل شئ حتى في جمالها و طيبتها الهائلة بلا حدود)

(الى هذه الدرجة كنت تحبها ؟)

(و أكثر ، اعطني صورتها المعلقة على الحائط)

(حاضر)

ما أن أعطته الصورة حتى بدا بالحديث و هو يتحسس بيده صورة والدته متذكرا كل جزء من جسدها الماثل على الصورة أمامه عيناها ، يداها ، شعرها و شفتاها المبتسمتان على الدوام كما عهدها .....الخ يحمل كل منها في طياته قافلة من الذكريات تتحرك في عقله و جسده عن اعطف و احن إمراة في حياته أغدقت حنانها الطاغي على ولديها دون انحياز لأحدهما و كانت طباعها فريدة من نوعها منافية لسلوكيات البشر و لاسيما المرأة المصرية اليوم عند مواجهتهم المواقف و الازمات و النكبات بكافة أنواعها ، فعندما تجد ما يغضبها منهما كانت تبكي كثيرا و تأسف لما فعلاه و تنبههم إلى خطورة خطأهم ، و إذا وعداها بالا يكرروه تفرح كثيرا و تظل تبتسم و تحن عليهم مدة اسبوع ، اضافة الى أنها لم تعرف الغيرة مكانا في قلبها ، فعندها انكار ذات عجيب في حبها لزوجها ، فلم تهتم للنساء اللائي يقابلهن في الحفلات و العمل ، فثقتها العمياء به و حبها الشديد له جعلها لا تهتم بأمر أو احتمال زواجه من اخرى فهذا

في نظرها لن يغير في اخلاص حبها الجارف له الى ابد الابدين رغم أنها من علية القوم في ريف الشرقية حيث تعتبر اسرتها المعروفة بأسرة الزنكلوني[٨] من اعيان البلاد المالكين لأراض زراعية و عمارات سكنية في القاهرة و الزقازيق[٩] ضواحيها قبل مصادرتها من قبل سلطات التأميم و مقصلتها السياسية التي لا ترحم ، حتى عندما أصيب بالشلل جراء هذا الحادث الجلل ظلت بقربه قرابة الاسبوعين حتى وفاته لم تنم بتاتا .

(لم تنم بتاتا طيلة اسبوعين ؟ !!!)

(نعم ، هذا صحيح)

(لكن هذا تهور ، قد يغمي عليها أو تسقط على من شدة الارهاق و الاعياء)

(و أنا أيضا كنت اعتقد ذلك فحاولنا مرارا و تكرارا ان نقنعها بأخذ قسط من الراحة أو النوم خوفا على صحتها ، لكن دون جدوى اذ تذهلنا امي مرة اخرى)

(كيف ؟)

(لا اعرف ، لكنها لم يبدو عليها أي اثر للمرض أو الحمى جراء ذلك ، و كأن قوة كامنة تحركها و تبقيها صامدة خاصة عندما تقرا القران الكريم و

[٨] نسبة لقرية زنكلون بمحافظة الشرقية (المؤلف) .

[٩] عاصمة محافظة الشرقية (المؤلف) .

الابتهالات و الصلوات بخشوع و دموع صادقة داعية الله ان يفرج همها و يزيل غمتها و يشفيه من المرض و هذا هو الايمان الصادق .....)

(حبيبي ، أراك تتحدث عن القران و الدين بقدر كبير من التقديس و التبجيل رغم انك لم تعد كما اخبرتني تهتم بشعائره ، فكيف كان ابي وراء ذلك ؟)

(سأخبرك ، لحظة اجتماع ثلاثتنا أنا و اباك و امي حول ابي و هو يحتضر في ساعته الأخيرة اوصى امي ان تدير املاكه و التي ستؤول الى اولادها بعد ان اعطاها حق الوصاية على حصتي لصغر سني حيث لم ابلغ حينها السن القانونية لإتولى ادارتها بنفسي عكس شقيقي الذي كان يكبرني بإثنا عشر عاما ، و مع ذلك استغل جهل امي و اميتها ليأخذ منها الوصاية و يستولي على كل شئ بالتدريج ، وقتها كنت لا ازال في الصف الثالث من المرحلة الابتدائية مدرسة علي بك السلانيكي[١٠] في رشيد قبل ان يقنع امي بالانتقال الى بيته بالعمرانية بعد مصادرة الفيلا من قبل سلطات التأميم بإيعاز أو تواطؤ منه باعتباره قد تجاوزت مساحته ٨٠٠ الف هيكتار حسب زعمهم رغم وجود العديد من الفلل و البيوت الضخمة في الاسكندرية و يمتلكها ضباط في الجيش و سلك الشرطة و تجار الجملة تفوق مساحتها ضعف الرقم المذكور لنمكث فيه مع زوجته....)

(هل كنت تعرف أمي من قبل ؟)

[١٠] والي رشيد التركي الذي واجه الحملة العسكرية البريطانية على مصر بقيادة فريزر ١٨٠٦م (المؤلف) .

(السيدة عزيزة ؟ !بلى ، أليست ابنة عمي ؟ !)

(ابنة عمك ؟ لم أكن اعرف هذا ؟ !!بل أن أمي لم تخبرني بذلك ....)

(لأنها كتومة بطبعها لا تحبذ افشاء اسرارها و مشاعرها للأخرين و حتى اقرب الناس اليها دفعه واحدة ، لكن هذا لم يلغ طيبة قلبها التي دثرت قلقي و توتري من الحياة الجديدة الانية التي لم اعتدها حيث تحولت من السكن في فيلا بنعيمها الوافر الى شقة متواضعة حجم علبة الكبريت قابعة في حارة شعبية فقيرة برباط السعادة و الامان)

(حدثني عن امي و رايك الشخصي عنها)

(امك .....و لو تحدثت عنها و خصالها الرائعة لما كفتها كتب و مؤلفات بأكملها عنها ....)

كانت سحر مشدوهة و مشدودة الانظار اليه و هو يحدثها عن امها بالإعجاب و التقدير المتناهي في غلوه يصل حد العشق الافلاطوني الغير ملموس نحوها ، لم يغفل أي جزء من حياتها سواء طفولتها أو مراهقتها أو شبابها فأوقعها في حيرة و استغراب و تساؤل عن سر اهتمامه الطاغي بوالدتها و شغفه المتزايد و المفاجئ في سرد فضائلها امامها كما لو كانت حبيبته أو زوجته التي كانت ستكون أو حتى أمه لو استثنينا ما سبق مما اوصلها الى نتيجة مفادها انه شعر بالامان و عدم الغربة في بيت اخيه من حسن معاملتها له و لامه قبل ان تعرف سر هذا الاكتراث المتزايد بها ،

اليست ابنة عمه الصغيرة الجميلة التي كانت تلعب معه و تشاركه احزانه و افعاله و افراحه و تساعده في اداء واجباته المدرسية حيث درسا معا في مدارس رشيد الابتدائية و الاعدادية .

(اذن ، فقد كنت تحبها ؟ !)

(اجل ، احببتها حب العبادة قبل ان يتبخر هذا الحلم و يتحول رمادا تذروه الرياح عندما اقدم عمي فؤاد على اخراجها من المدرسة و في سن الثالثة عشرة و زوجها بأخي رغما عنها)

(زوجها و هي طفلة ؟)

(كانت عائلتنا تقليدية جدا فيما يتعلق بالزواج كغيرها من مثيلاتها في ريفنا المصري و الأحياء الشعبية حيث ظاهرة الزواج المبكر لاتزال ضاربة بجذورها في هذا البلد الى يومنا هذا ، أنت اكبر دليل على ما قلته الآن)

(لكن ابي كان اكبر منكما في السن و أنت احببتها كثيرا و و و لكن ....)

(لكن ماذا ؟ تكلمي يا عزيزتي ، لا تترددي في نطقه)

(و لكنك لم تحرك ساكنا حيال حبيبتك أو تدافع عن قصة حبك ؟)

(ها ها ها ، أهذا الذي يشغل بالك ؟ صحيح احببنا بعضنا البعض ، لكن حبنا كان طفوليا بمعنى اننا لم نبلغ مرحلة النضج في عواطفنا لكلينا ، كما كنت احترم اخي الكبير و عاداتنا و تقاليدنا التي ورثناها عن ابائنا و اجدادنا منذ نعومة اظافرنا تلزمنا بذلك)

المحطة الرابعة

الطوفان

أحس عبداللطيف بوخز حاد ينخر في ظهره المشلول أيضا مما أدى إلى تخدر ذراعيه جراء مكوثه الطويل في السرير ، فطلب من سحر أن تساعده بالجلوس على الكرسي المتحرك و أخذه إلى فناء البيت لتغيير الجو الخانق داخل غرفته كي يستنشق هواء نقيا و يتناول فطورا طازجا قرب حوض السباحة حيث وجد إبنته شيرين هناك على مائدة الإفطار و معها أم رياض المربية :

(صباح الخير يا أبي)

(صباح الخير يا إبنتي)

(صباح الخير سحر)

(صباح الخير عزيزتي شيرين ، أراك سعيدة للغاية على غير العادة)

(نعم ، سأذهب في رحلة مع أصدقائي إلى أسوان)

(و هل تستدعي رحلة عادية كل هذه السعادة العارمة ؟)

(يعني .....أغير جو الرتابة الذي أعيشه في البيت)

(تغير جو الرتابة أم تقابلي محسن ؟ هه ؟)

(أاانا ؟!!!)

(طبعا أنت)

(لا لا أبدا ، كل ما في الأمر .....)

(ها ها ها ، لا عليك يا حبيبتي ، وافقت أن تذهبي معه .....)

(حقا ؟ !!ياي ! هذا رائع .....)

(لم أنه كلامي بعد ....!شريطة أن يأتي حال قدومه إلى و يعلن الزواج منك فورا)

(رائع .....!و و لكن قد لا يقبل الزواج بهذه السرعة ...)

(لأنك إبنة عبد اللطيف الرشيدي الذي إضطهد شقيقه الأكبر فارس العناني ، أليس كذلك ؟)

(ف في الواقع ، أنا لا أقصد ....)

(لا عليك ، أنا أفهمك ، لكن هذا قراري النهائي ، إذا كان يحبك فعلا فيجب أن يتزوجك أمامي و إلا سأمنعه من رؤيتك بالمرة)

(حسنا حسنا ، و هو كذلك يا أبي .... بالإذن)

تنطلق شيرين مسرورة و نشوانة نشوة البلابل الخارجة من أقفاصها الكئيبة الخانقة حيث سرعان ما إنفكت تغرد لحريتها المكبوتة منذ أعوام عدة غير مصدقة ما سمعته للتو من والدها الصارم في تربيته و القاسي في بطشه معها و مع شقيقها الأكبر رأفت الذي قضى نحبه في حادثة سيارة أليم قبل سنة و نصف و هو يغير أسلوب تعامله معها في غضون أيام ، بينما سحر شردت بذهنها إلى الأفق البعيد تتذكر إسم فارس العناني الذي ورد

على لسان زوجها قبل قليل ، حبها الأول منذ الطفولة و الدراسة حيث كانت تعتبره بطلها المثالي الذي كان يحميها من الشباب المشاكس المتنمر عليها بمعاكساتهم الدنيئة جيئة و ذهابا (على الرغم من إنه معروف بضعفه وعدم قدرته على حمايته من الضرب المبرح الموجه نحوه) و دون جوان الجامعة لوسامته الفائقة البهاء وسامة الفنان اليمني الكبير علي المريسي (١٩٦٦-٢٠٠٧م) حيث سلب ألباب الفتيات القادمات نحوه زرافات و وحدانا من كل حدب و صوب ليقع فريسة سهلة لحصارهن الناعم دون فكاك مما أثار غضب والده الحاج عبد الرحيم المتزمت المتشدد في رجعيته التي لا تطاق لدرجة أنه أرسل جواسيسه و رجال التحري التابعين لمراقبته عما إذا كان يقيم علاقات جنسية معهن سرا و علانية أم لا ؟ إضافة إلى جمعه معلومات مفصلة و كاملة عن حشد الفتيات و النسوة اللائي قابلهن في السر و مستواهن الإقتصادي و الإجتماعي حيث لا يزال الحاج عبدالرحيم منتميا إلى فئة التجار التقليديين المتحكمين بالأسواق الشعبية الكبرى في شارع الشواربي و وكالة البلح و البازرعة و زنقة الستات[١١] ، فلا غرابة أن يرفض زواج إبنه منها بعدما أصبح والدها يعمل محاسبا عند الغير بألف جنية فقط في الشهر ، ليظل كلاهما بعيدا عن الآخر دون أن يفكرا البتة بتبادل الرسائل

[١١] من الأسواق الشعبية الإسلامية الشهيرة في مدينة الإسكندرية تأسس في العهد الفاطمي (٩٨٣-١١١٦م) ليكون سوقا خاصا بالنساء آنذاك (المؤلف) .

بينهما ردحا من الزمن حتى وفاة والده عام ١٩٨٤م ، فينتهز فارس الفرصة و يتوجه نحو بيت والدها طالبا يدها للزواج بشكل فاجأها في ذلك الوقت قبل أن ينطفئ قنديل عشقه الدائم لها تحت وطأة رفض الأخير الحازم و القاطع له و يتحطم قلبها الغارق في حبه الأثير تحت تأثير هذا الرد القاسي دون أن تحرك ساكنا و تصرف نظرها عن الموضوع إلى الأبد دون أن يمنع الأول من الإصرار على مشاعره الصادقة نحوها إلى درجة تشاجره العنيف مع خطيبها الجديد ناصر عندما رآهما الأخير يجلسان معا في إحدى المقاهي القريبة من مكان عملها ، فضلا عن رفضه المتواصل الزواج من أخرى حتى هذه اللحظة حيث لا زال حبها خالدا في قلبه قلبا و قالبا و كاد أن يضحي بحياته من أجلها عند مواجهته لزوجها الحالي الذي أيقظها من الغرق في بحر شرودها الطاغي للتو :

(ما بك يا عزيزتي ؟ !لقد شردت كثيرا و تركت قهوتك تبرد ، فيم كنت تفكرين ؟)

(أنا ، لا أبدا ، تذكرت وفاة والدي فحسب)

(و الذي يتذكر وفاة شخص عزيز عليه يكون مبتسما ؟!)

(أوه معك حق ، أنا آسفة ....)

(أم أنك تفكرين بفارس ؟!)

(فارس ؟!!! فارس من ؟!!!!)

(سحر ، لا تحاولي الإنكار ، أنا أعرفك جيدا عندما يذكر إسمه تشردين و تبتسمين إبتسامة عريضة تملؤها السعادة و البشاشة ، أليس كذلك ؟!)

(في ي ي الواقع ....)

(ما بال الجميع اليوم خائفون يترددون في أثناء الكلام ؟! لقد أصبحتم تفكرون عند قول أي شئ أمامي ، ما الحكاية ؟!!)

(..... ؟!)

(فهمت الآن ، .... لا عليك ، بوحي بكل ما يجيش به صدرك من أسرار حبيسة قفصه و تتحين الفرصة للخروج منه و دون أن تخشي شيئا ، فلن أعنفك أو أضربك على الإطلاق أو أسجنك كما في السابق)

(ح ح حقا ؟!)

(سحر ، لقد إتفقنا منذ البداية أن نبدأ صفحة جديدة بمقتضاها أن أروي قصتي كاملة أمامك ثم أمنحك حريتك ، لذا لا تخشي شيئا ، هيا)

(أشكرك على كل هذا ، فقد كنت أن أبوح لك بسر صداقتي لفارس و عما إذا كنت أحبه أم لا منذ سنوات عدة و كانت شجاعتي تخونني دائما)

(لماذا ؟ هل كنت تحبيه كثيرا ؟)

(إلى درجة العبادة ، أنت لا تتصور مدى القيمة أو المحبة الغالية التي أكنها له في قلبي ، ليس من ناحية وسامته و جاذبيته فحسب ، بل أخلاقه الدمثة و شجاعته في أحلك المواقف و الظروف)

(و من منا لا يعرف فارس العناني أعز صديق بالنسبة لي ، حتى و لو إختلفنا فيما بيننا ، فسرعان ما تلتئم جراح صداقتنا و ننسى ما حدث بالمرة)

(لقد ذكرت لي يا عزيزي أنك و فارس صديقين حميمين منذ الطفولة ، هلا رويت لي شيئا عن ذلك ؟)

سرعان ما إن طلبت منه أن يروي لها عن صداقته الوطيدة بينهما من أيام الدراسة في المدرسة الثانوية في حي روض الفرج الموصوف دوما بأنه وكر للغوغائيين و المشاكل عندما كان يساعده في مواجهة الإيذاء اللفظي و الجسدي من قبل الطلاب لمعايرته بفقره و دخوله السجن مرة بتهمة سرقة إحدى أدوية القلب من أجل أمه المريضة من صيدلية قريبة من حارتهم التي أقاموا فيها قبل أن يتنازل صاحبه عن مقاضاته و يفرج عنه عندما تنازل عن دعواه أمام وكيل النيابة ، فضلا عن مساندته بمصروف جيبه في أحلك الظروف التي واجهته آنذاك ليدفع ما عليه من مصاريف المدرسة و التي توصف زورا و بهتانا بأنها حكومية في حال إذا الأول لم يستطع الإيفاء بها ، و من جراء هذا التصرف كان يتعرض الى توبيخ و تعنيف والده مرارا و تكرارا و بالمقابل يتقبله بصدر رحب من أجل رفيق عمره الذي لم ينس معروفه قط مع العلم أن هذه المواقف قد تجعل الأخير يحقد عليه فيما بعد مما يعتبر هذه التصرفات منا و تحننا و شفقة عليه

لكن لم يحدث من هذا القبيل بالمرة لأنه الصديق الوحيد في حياته الذي صادقه طوال العمر و لا يزال مخلصا له حتى الآن حيث لم يستطع في خضم هذا الجو العدائي في فترة الدراسة الثانوية أن يكون صداقات عديدة حتى وسط الجنس الآخر الذي لم يتعرف من خلاله سوى على زوجته صفاء الخجولة الطيبة و أم ولديه رأفت و شيرين ، و بعد تخرج عبد اللطيف من كلية الشرطة بتقدير إمتياز عام ١٩٧١م حيث إلتحق بها بالواسطة الآتية من قبل والد رفيقه فارس المتخرج من كلية التجارة بتقدير جيد جدا في نفس العام دون أن يؤدي مثل ذلك التصرف إلى جرح كرامته بالمرة أو غضاضة في نفسه تظل أوجاعه السامة محفورة في صميمها الغامض :

(و هل انقطعت علاقتكما بعد دخولكما الشرطة ؟)

(مؤقتا ، و لا سيما خلال إنهماك كلا منا بدراسته الأكاديمية وقتها دون أن يمنع ذلك من قيامه بزيارات طفيفة إلى البيت لتفقد والدتي أو حتى تهنئتي بأية مناسبة سعيدة تتعلق بي كمباركته لولدي رأفت بنجاحه في الإبتدائية و إحتلال المركز الأول فيها على مستوى الجمهورية و عندما رزقت بشيرين .....الخ)

(.....)

(لكن علاقته بولدي رأفت ظلت وطيدة للغاية ، سيما و أنه كان شريكه في شركته المتخصصة في صناعة الهواتف السلكية و اللاسلكية قبل أن أشتري حصته منه)

(لماذا ؟ ألستم أصدقاء و على أساسه سيكون أمينا على أموال إبنك كثيرا ؟ .....)

(لكن التجارة لا تعرف القرابة أو الصداقة بل شيئا واحدا فقط ألا وهو الربح و جميل لو كان هذا الربح على الدوام و لاسيما أن الذي يحققها يجب أن يكون خبيرا و متخصصا في نوع التجارة التي يتعاطاها و هذه هي مشكلة صديقي فارس الذي لم يكن يفقه شيئا في تجارة الإلكترونيات)

(فهمت الآن)

(لكن هذا لم يلغ صداقتنا بالمرة بل زادت متانة أكثر من ذي قبل ...)

(حتى بعدما كدت أن تقضي عليه لأنه وقف في وجهك من أجلي ؟ !)

(..... ؟ !!!)

(عفوا ، أنا لم أق ...)

(لا عليك ، هذه المرحلة كادت أن تقضي على صداقتنا ، لكني مازلت وفيا له حتى تلك اللحظة .....همم ، تستغربين ، أليس كذلك ؟)

(..... ؟)

(لأنني لو خسرته سأخسر كل ما تبقى من الأشياء الجميلة في حياتي بعدما فقدت أمي و زوجتي و إبني رأفت و لأصبحت نسخة طبق الأصل من الفرعون خوفو الذي أجبر شعبه على بناء أكبر قبر في العالم ليصبح سجين جدرانه إلى الأبد ، لكنه ما يزال يقاطعني و لا يريد القدوم إلي أو حتي زيارتي ليوم واحد فقط .... لا أستطيع تحمل هذا لا أستطيع لا أستطيع ..... اهئ اهئ اهئ)

(إهدأ يا عزيزي)

سرعان ما إرتمى في حضنها حملا وديعا يشتاق لحليب أمه المحروم منه ردحا من الزمن أثار دهشتها لحظة رؤيتها دموع هذا الوحش المرعب تنهمر سيلا جارفا أمامها و لاسيما بعدما أصبح سجينا لوحدته القاتلة داخل قضبان قصره العاجي المصنوع من المرمر الهش .

المحطة الخامسة

حسن الختام

إجتمع لفيف من الناس في إحدى صالات الأفراح لحضور عرس إبنة عبد اللطيف شيرين اليوم بشقيق فارس الصغير محسن في مشهد حافل بالمهرجانات الفنية الجماهيرية يتوافد اليها الناس زرافات و وحدانا ، رجالا و نساء من كل حدب و صوب دون تأخير ، فمن غير المعقول أن يغيبوا عن مناسبة تخص السيد عبد اللطيف الرشيدي و عائلته حتى و لو كانت بغاية التفاهة أو عيد ميلاد أو حفل ختان حتى بعدما أضحت مراسيما و أعيادا وطنية تقام لها المهرجانات الخطابية الرنانة و تنفخ الأبواق و تدق الطبول و تطلق الألعاب النارية و العروض العسكرية على شرفها ليل نهار ، وحده فارس و بقية إخوته السبعة ذكورا و إناثا قاطعوا العرس و تبرأوا من أخاهم الخائن من وجهة نظرهم شاءوا أم أبوا بأمر من كبيرهم الذي علمهم السحر مما أثار إستغراب الضيوف الحاضرين دون أن يكلفوا خاطرهم السبب الحقيقي وراء مقاطعة هذا الشخص عرس إبنة الرشيدي و صهره مع العلم أن الجميع يدرك أنه صديقه الحميم و لا يرفض له طلبا و يتجاوز ما يعتبرها هفوات مقصودة منه نحوه .

و في الجانب الآخر ، كان السيد عبد اللطيف يدخل إلى القاعة على الكرسي المتحرك برفقة زوجته سحر أمام الملأ الذين سكتوا و إنحنوا له لحظة ولوجه إليها :

(فارس سياتي و إخوته إلى العرس ، و أنا على يقين بذلك)

(و كيف عرفت ذلك ؟ ربما لن يأتي تنفيذا لقراره الصارم الذي إتخذه بشأن هذا ؟)

(غير صحيح .... غير صحيح ، لقد قرر التبري من أخيه محسن و أنه لم يعد عضوا في العائلة ، لكن هذا ليس معناه ألا يحضر عرسه حتى لا يتركه وحيدا هناك و لو على سبيل المجاملة و العادات و التقاليد الشعبية و من أجل أن يظهر تماسك عائلة العناني التي لا تهزها الرياح أبدا أمام الناس أجمع)

و كان حدسه صادقا هذه المرة ، فيحضر فارس العناني و أخوته بعد ثلاث دقائق من بدء العرس ليخطف أنظار الجميع و لاسيما الجنس اللطيف و بالأخص سحر المبهورين من جماله و وسامته الأخاذة و الأخذة بعقولهم و قلوبهم في آن معا رغم ملامح وجهه العابسة المعبرة عن عدم رغبته المجيء إلى هنا على مضض دون أن يعرف السبب ، أهو من أجل سحر ؟ آم من أجل شقيقه محسن ؟ أم شرف العائلة كما قال عبد اللطيف لتوه ؟ ....الخ ، لكن الثابت أن كل هذا بدأ يزول تدريجيا مع قدوم

العروسين و ترحيبهما بالسيد عبد اللطيف ثم صعودهما إلى المنصة أمام ترحيب المهنئين قبل أن يفاجأ بحضور فارس و الذي ما إن رآه محسن حتى هب لمصافحته دون أن يرى أية رد فعل من الأول بوقوفه جامدا عابسا جاحظ العينيين دون حركة أمامه حتى ناداه عبد اللطيف فجأة من خلفه ملتفتا له :

(مرحبا بك يا أبو الكباتن)

هكذا كان يناديه منذ كانا شابين يافعين في المدرسة الثانوية و الأخير رد عليه بكنيته المفضلة لديه أبو خليل :

(سلم على شقيقك محسن و هنئه بزواجه الميمون)

و دون مقدمات أو تردد إتجه نحو محسن الممتلئ رعبا من مجيئه قبل أن يتبدد كل هذا أمام ربت يده على كتفه مع إبتسامة جافة إن لم نقل هزيلة مهنئا إياه :

(مبروك يا أخي ، ألف مبروك)

فيصاب محسن بالذهول مما سمعه بإذنيه ، شقيقه فارس يهنئه بالزواج فيندفع نحوه لإحتضانه من هول المفاجأة و السرور كما حدث مع سحر التي لم تصدق ما رأته بأم عينها و لتفاجأ أكثر بإقترابه نحو زوجها و يحيه بحرارة لم تطفئها دموعهما الغزيرة معا و يعتذر كلا منهما للآخر عما بدر منهما من إساءات تجاه بعضهما البعض و لاسيما الفترة الأخيرة المتعلقة

بمحنة سحر مع زوجها ليتحول عرس شيرين و محسن إلى فأل خير و يزيل كل الخلافات بين الجميع و لو مؤقتا أو لنقل بعد فوات الآوان حيث بدأ يشعر عبد اللطيف بدنو أجله شيئا فشيئا و لكن بعد أن أزاح ما بصدره من هموم أثقلت كاهله لحين من الدهر .

المحطة السادسة

الإعتراف الأخير

ما إن وطئت قدماه أرض المنزل فبدأ رأسه يترنح يمينا و شمالا من كثرة السهر و إستقبال المدعوين من كافة أنحاء القطر في حفلة عرس إبنته دون كلل أو ملل أو حتى شعور بالألم في جسده المقعد بأثقال و أوزار ماضيه بحلوها و مرها و سلبها و إيجابها فتجرف ما أمامها من أحلام و آمال و أفراح وبساطة و براءة و تجعل الإنسان شخصا غامضا غموض البحر المسجور بأمواجه المتلاطمة و لاسيما فيما يتعلق بسحر التي أذاها كثيرا منذ أن إلتقى بها أول مرة خلال أدائه عمله كضابط شرطة في قسم عمر مكرم و مع غيرها من زميلاتها اللائي شاركن في مظاهرة ضد النظام جرت أحداثها عام ١٩٧٧م بقيادة صديقتها و زميلتها في العمل منال فتحي حيث كانت وقتها منخرطة في إحدى الحركات اليسارية و المنشقة عن الحزب الشيوعي المنفرط عقده منذ عام ١٩٦٥م و التي أحرق عنقها الرشيق الجذاب بأعقاب سجائره بوحشيته المفرطة المعتادة على المعتقلين و لاسيما الطالبات بمن فيها سحر التي إنهال عليها صفعا و لكما و ركلا دون رحمة أو شفقة و خاصة بعد أن عرف مسبقا أنها إبنة أخيه حيث لم يكتف بذلك فحسب ، بل مزق ثيابها عنوة أمام زميلاتها المرتجفات رعبا

و زملائه المصدومين من قسوته الطاغية و عنفه الوحشي الذي لا يطاق (رغم أنهم يمارسونها مثله تماما منذ أن أضحت صفات لصيقة بهم و غيرهم رجال الشرطة خلال عمليات المداهمة و الإستجوابات التي يقومون أثناء أدائهم لعملهم المحفوف بالمخاطر كما عهدهم الناس بذلك من قبل) غير مدركين ما سبب وحشيته النارية تلك و التي سرعان ما إنفجرت نيرانها الجنهمية من بركان الخامد في جوف عقله عندما تردد إسم أبيها على أذنيه مرة واحدة فقط :

(قلت إسمك سحر درويش الرشيدي ؟)

(أاااجل ...)

(و تقولينها بكل وقاحة أمامي ....)

(آه ، لا لا لا أقصد ذلك ، صدقني ، لككككني إسمممممي سسسسحر ددرويش الرررررشيددددي ....)

(خذي !)

(آه ، يا الله)

ظل يضربها بكل ما أوتي من قوة ينهال بها على جسدها الضعيف دون رحمة قبل أن تفلت من قبضته عندما جاء والدها إلى قسم الشرطة لإخراجها من هناك حيث إلتقى به و هدده بحبسه و إبنته و إحالتهم إلى النيابة العامة إذا لم يسلم له نصيبه في أراضي والده التي أخذها منه عنوة

و غصبا ، فوافق على أثرها خوفا على نفسه و كريمته سحر التي أهاله منظرها المؤلم جدا ، كما أنه لم ينس ذاك اليوم عندما رأى سحر تحتضن إبنته شيرين التي نامت في حضنها تحت تأثير غنائها الرقيق الشجي رغم الأذى و الظلم و الإضطهاد و الضرب الذي تعرضت له على يديه و دخولها إلى المستشفى مرارا و تكرارا دون أن يجرؤ أحدا على محاسبته أو مقاضاته بإستثناء فارس العناني الذي وقف لوحده في مواجهة التيار الذي يعلم أنه سوف سيسحقه بقدميه حتما لا محالة رغم رابطة الصداقة العميقة بينهما ، وقف بالقرب من حوض السباحة سارحا بفكره إلى الأفق البعيد مخترقا أشجار الصنوبر و السرو العالية التي تحجب عنه ضجيج الناس و المدينة مدخنا سيجارته الفاخرة مستغربا من ذلك المنظر السالف ذكره :

(لماذا ؟ !الماذا ؟ !!رغم أني عاقبتها و كشفت حقيقتها و والدها معا أمامها و مع ذلك مازالت تحبها كثيرا بل أكثر مني .....لماذا ؟!!!)

(لأنك قلبك صار حجرا صلدا لا يعرف للرحمة مكان فيه)

فجأة يتبدى طيف والدته أمامه ملتفتا إياه في مشهد يشيب فيها الولدان تيبست ركبتيه من هول الموقف لحظة إلتفاتتها نحوه حملا صغيرا يتهرب من الذئب الذي لا يفصل عنهما سوى بضع خطوات جعلته يتلعثم في

كلامه لأول مرة في حياته و هو الذي كان الجميع يموت من الرهبة و الرعب و يتلعثمون و يترددون كثيرا أمامه :

(اااامي ؟ !!!م م م منذ متى و اااانت هنا ؟ !!!)

(و ماذا يهمك في أية ساعة وجدت هنا أمامك أم لا و أنت قد نسيتني بالمرة في خضم طموحاتك المتلاطمة المندفعة إندفاعة الأمواج العاتية التي تحطم و تهلك ما أمامها من نسل و حرث لكنها سرعان ما تنهار عبر أصغر خطأ ترتكبه بحقها بعدما أصبحت بلا ضابط يضبطها أو يوقف جنونها بالمرة)

(أمي ، ماذا تقصدين بهذا الكلام ؟ !!!)

(بل الأحرى أن تسال نفسك ما الذي فعلته بحق الجحيم ؟ !!!)

(بنفسي ؟ !!ماذا بها نفسي ؟! ،،،،،،،، أنظري إلي ، أنا في أحسن حال يا أمي و صرت من أهم رجال الشرطة إنظباطا و أمانة و اخلاصا كما كنت تفتخرين بي عندما ظهرت أمامك ببزة التخرج من كلية الشرطة ، و بعد التقاعد أضحيت من أغنى أغنياء مصر إمتلك على نصف شركاتها الخاصة و العامة و إسترجعت حقوقنا التي سلبتها الدولة منا فترة التأميم و أيضا أموالنا و أراضينا التي إغتصبها أخي منا .....)

(لكن على حساب أناس أبرياء لا ذنب لهم فيما حدث من ظلم و قهر أصابك و من بينهم إبنة أخيك الكبير التي لم ترحمها و عاملتها معاملة العبيد لدرجة أنه وصل بك الأمر إلى تحطيم يديها بكعب حذائك ....)

(الآن صاروا أبرياء في نظرك ؟!!! أنسيت ما فعلوه بك و بي ؟!!! لقد جعلونا نتشرد في الشوارع تشرد الشحاذين الذين يستجدون الناس المال أو الخبز هذا إذا وجد ، لم أكن أصدق أن هذا الوضع يليق بعائلة رجل الأعمال أحمد الرشيدي ، حتى أقرب الناس الطيبين إلينا لم يفعلوا لنا شيئا سوى الندب و النواح و الدعاء الغير مستجاب أصلا ، لذا كان يجب أن ينالوا عقابهم جزاء وفاقا بما فعلوه بنا....)

(و هذا يقودني إلى بقية كلامي الذي لم تمهلني فرصة لأكمله ،،،، كل فعلته في حياتك من إنجازات كانت أيضا على حساب طيبتك و أخلاقك الدمثة ، فلم تعد عبد اللطيف الطيب الودود الحساس الذي لم يؤذي أحدا في حياته ....)

(تقصدين الضعيف العديم القيمة الذليل الذي لا يحسب الناس له أية حساب واقعا تحت أقدامهم دون رحمة أو شفقة تذكر ،،،، لذا فأنا أفضل أن أكون شيطانا حرا لديه كرامة و منعة و قوة خيرا من أكون ملاكا طيبا خانعا يقبل الذل و الهوان على يد سجانيه أو سادته)

(ألهذا الدرجة أضحيت قاسيا لا تعرف الحب إلى قلبك ؟!!! و احسرتاه يا بني و احسرتاه ،،،، و لماذا أتحسر عليك أساسا ؟ !فولدي الحبيب الذي أعرفه قد مات ، مات منذ زمن بعيد ....)

(أمي ، أمي إلى أين أنت ذاهبة ؟!! ....)

(لقد مات ، مات ، مات .....)

(أمي ، أمي لا تتركيني رجاء ....)

(لقد مات إبني منذ زمن بعيد ،،، اهئ اهئ ، و لم يعد له وجود في حياتي أبدا أبدا أبدا....)

(اااااامي ؟!!)

بدأ طيف أمه بالإختفاء من مخيلته المثخنة بالجراح القديمة شيئا فشيئا دون أن تنجح محاولاته و صرخاته العابثة في إيقافها أو حتى الإمساك بوجودها الوهمي الجميل بالنسبة له و الذي لن يعود مجددا جاثيا على ركبتيه باكيا متحسرا عما فعل من أعمال و خطايا يندى لها الجبين الصامت في سره و ذاته المكبوتة المحرومة من البوح بحقيقة مشاعرها الغاضبة تجاهه و طغيانه على مر الأيام .

المحطة السابعة

نهاية المطاف

في صباح اليوم التالي ، إستيقظت سحر من نومها ممتلئة سعادة و نشاطا لا يوصف منذ دخولها بيت المرمر الرمادي الكئيب في بهوه و زينته قبل أن ينقشع شيئا فشيئا بمرور الأيام و الليالي القلائل التي مكث فيه بين جدرانه مع زوجها و إبنته ذاقت مرها الزعاف قبل أن فيما بعد إلى عذب حلو فرات و إتجهت صوب غرفة الحمام الخاصة بهما لتغتسل و من ثم تتجه إلى النافذة و تفتحها دون أن يتوقف سيل البسمة عن الإندفاع إلى كافة أنحاء جسدها الرشيق الرقيق الهش ليملأها قوة و حيوية لم تعرفه من قبل ، و عندما رأت زوجها مستغرقا في نومه مستريحا نافضا عن نفسه وطأة هموم عسيرة ظلت راسخة في جسده رسوخ الجبال على الأرض دون أن تتزحزح قيد أنملة عنها بعدما إعترف بما كان محبوسا في قلبه من حقائق مرة و أفعال شنيعة إرتكبها بحقها و والدها و أخيها و في الأخير بعدما روى كل شئ قرر و هو يرتعش أن ينفذ وعده نحوها بأن يطلقها لكن سحر رفضت و أصرت أن تكمل حياتها معه كزوجة مخلصة له رغم أن زواجهم يعد حراما بموجب الشرع لتتحمل إثمه لوحدها ، بل أنها سامحته على كل ما فات من إساءات فعلها نحوها في موقف أذهلت الوحش الطاغية داخل أدغاله البشرية المصنوعة بيديه حينا من الدهر و جعلته

يذرف الدموع المنهمرة سيلا جارفا لما حوله منتظرا العفو من ضحيته حتى لا يطبق عليه حكم الإعدام دون أن تهنا بذلك أبدا ، فما أن تقدمت صوبه لإيقاظه حتى تفاجأ بأنه فارق الحياة قرير العين ثاغر المبسم بعدما رأى والدته سعيدة بما أقدم من توبة نصوح و عودة إلى رقة قلبه الغائبة منذ سنين لتأخذه معه إلى مثواها الأخير .

لم تتعافى من الصدمة المفاجئة بعد هي و شيرين التي قطعت شهر العسل في إيطاليا لتعود مع زوجها محسن و الذي بدوره أبلغ أشقائه بمن فيهم أخيه الأكبر فارس بموعد العزاء ليأتوا في طليعة المعزين هناك :

(صباح الخير سحر ، هل أنت على ما يرام ؟)

(صباح الخير فارس ، نعم أنا بخير ، و ما جعلني في تحسن أفضل أنكم حضرتم العزاء رغم عدم حضور أحد إليه حتى هذه اللحظة .... همم كأنهم ما صدقوا أن الطاغية الذي أرعبهم و كتم على صدورهم ردحا من الزمن قد فارق الحياة أخيرا ليتلقطوا أنفاسهم للمرة الأولى في حياتهم ، لكنهم نسوا أن واجب العزاء لا يعرف التوقف عند هذه الأمور الشخصية و يجب أن تؤديه مهما السبب)

(أعذريهم يا سحر ، فالمعاناة و الإضطهاد اللذين تلقوهما من المرحوم جعلتهم لا يريدون تردد إسمه على مسامعهم مجددا لا من قريب و لا من بعيد)

(لكنك تعرضت لإضطهاده و تشاجرت معه مرارا و تكرارا و رغم كل هذا أتيت و أشقائك اليوم لتعزيته و عائلته المنكوبة بوفاته)

(لأن هذا واجبي و يجب .....)

(ها أنت قلتها ، هذا واجبك ، فرغم كل ما جرى لك في هذه الحياة بحلوها و مرها لم تستلم لمساوئها و سلبياتها القبيحة و لم تعطها أية فرصة لتشويه أخلاقك الحميدة و شخصيتك الطيبة المثالية التي ترعرعت عليهما منذ نعومة أظافرك حتى الآن ، فمازلت فارس الذي أعرفه منذ زمن طويل)

(أنت تبالغين)

(أبدا و الله ، ثم هذا رأي زوجي المرحوم أيضا فيك و الذي كان يمدحك و يمدح أخلاقك أمامي حيث يعدك من أعز أصدقائك المخلصين ، رحمة الله عليه)

(رحمة الله عليه و علينا جميعا ، بالمناسبة أين هي شيرين ؟)

(أنها في غرفة النوم مع زوجها محسن شقيقك و هو يقوم بتهدئتها و تخفيف هول الصدمة التي أصيبت بها و لاسيما أنها تفقد والدها الحبيب العزيز على قلبها)

(معك حق ، و لذلك لن تستطيع هذه الأزمة إلا بصعوبة بالغة شريطة أن نتكاتف معها يدا بيد لإخراجها من ذلك الكرب)

(أجل)

ظلا يتحدثان طويلا في كل شئ يتعلق بهذه الحياة متعلق بكليهما من أناس و آمال و إحباطات و أفراح و أتراح و ذكريات حلوة كانت أم مرة قبل أن يتوقفا فجأة أمام ضجيج عارم يخترق جدران الفيلا الفخمة المتشحة بالسواد حينها :

(ما هذه الضوضاء ؟!!)

(لا أعرف يا سحر ،،،،،، مازن ، مازن ؟!)

(نعم أخي فارس)

(أخرج و إستطلع تلك الجلبة التي في الخارج)

(حاضر)

كانوا مستغربين من هذه الجلبة الصاخبة الآتية من الخارج و التي أجبر شيرين على الخروج من غرفتها خوفا و رعبا الى بهو الفيلا من ارتفاع وتيرتها إلى أقصى حد لا يقبله المنطق و لاسيما أنها كانت صادرة من أصوات أناس يرقصون و يغنون فرحا و سعادة بوفاة الطاغية الذي كبل حياتهم و حكمهم بالحديد و النار لفترة طويلة من الزمن دون إحترام لمشاعر عائلته و أصدقائه و إستمر هديرها بالتصاعد عند إقترابهم من أسوارها و إقتحامها عنوة بل وصلت بهم الدرجة إلى حد دخول البهو و نهب محتويات الفيلا و أثاثها ، و لم يكتفوا بذلك ، بل حاولوا الإمساك

بزوجته سحر و شيرين إبنته و الإعتداء عليهما و كادتا أن تغتصبا و تقتلا تحت نعال أقدامهم و قبضاتهم أيديهم دون وجود للشرطة أو تدخل منها كما كانت تفعل من قبل بأمر المرحوم الذي برحيله رفعت الحماية عن عائلته برحيل سلطته الطاغية على الناس لولا تدخل فارس و أخوته و إستدعاء لإبن عمه أيوب الذي يعمل ضابط شرطة في المعادي لإنقاذ الموقف لكانتا في عداد الموتى لا محالة .

مر أسبوع على تلك الحادثة التي لم تنسها سحر البتة و هي تبدأ عملها في مجموعة شركاتها الراحل كرئيس مجلس إدارتها دون أن يكون لديها أية دراية أو خبرة في تنظيمها حتى و لاسيما أن هذه الشركات نتاج أفكار زوجها العبقرية على الرغم من كونه ضابط شرطة سابق يفتقر إلى الخبرة التجارية لولا وقوف نجله رأفت إلى جانبه بإستشاراته و أفكاره الإقتصادية و الإدارية كتأسيس صندوق إحتياطي مالي لكل شركة في حال تعرضها إلى أزمة مالية و أيضا تأسيس مراكز أبحاث متطورة متخصصة فيها و الشركات المتعددة الأنشطة التجارية و الفيدرالية المركزية الإدارية المزدوجة أو تلك الأفكار المتعلقة بحل مشكلة العمالة الزائدة و البطالة بأن العمال أو الموظفين الذين يتم الإستغناء عنهم كان يتم توظيفهم في فروع شركاتهم البعيدة سواء داخل مصر أم خارجها و إن وجدوا أنها غير قادرة على إستيعابهم يوظفوهم في الشركات الأخرى التي لها تحالفات أو شراكات

تجارية معهم فإن لم يجدوا فيمنحوهم مكافاة نهاية الخدمة إضافة إلى قرض ميسر دون فائدة ليؤسسوا مشروعهم الخاص .....و غيرها من الأفكار المبتكرة التي من خلالها كسب عبد اللطيف الرشيدي شعبية هائلة لدى سكان الحارات العشوائية الفقيرة و الشباب العاطل الواقف إلى يومنا هذا حيث عندما كان يبحث عن موظفين أو عمال جدد أول مكان يقصده هو الجامعات المحلية و أول أناس يقصدهم هم الخريجين و حسب التخصصات المطلوبة و الغير المرغوبة على حد سواء .

ظل تفكيرها مشتت لا تعرف كيفية التصرف بما لديها من ثروة هائلة بحجم الأفيال يسيل لها لعاب الآلاف من البشر أمثالها و يتحينون الفرصة لإلتهامها و التنعم بنعيمها الوفير قبل أن تنجدها شيرين و زوجها محسن اللذان تقاسما معها الثروة مناصفة قبل أن تصادرها الدولة بعد ثلاث أشهر من وفاة زوجها ، إضافة إلى فارس الذي علمها أصول إدارة هذه الأموال دون أن يفكر أن يستغلها حالتها تلك و يعرض عليها الزواج كما هي عادته القديمة و هي عدم إستغلال أحبائه لأغراضه الشخصية مهما كانت أهميتها القصوى بالنسبة له و التي إستقاها من أمه و التي كانت توصيه بألا تتسم محبته لمن يحبهم حبا صادقا بالإستغلال و الرياء حتى لا يفقدهم و يتشوه غرضه النبيل نحوهم ، لكن سيل العواطف الجياشة المتدفقة إلى أنحاء جسده الرشيق نحوها لم يستطع كبح جماحها البتة و لاسيما أنه لم يتمكن

من نسيان حبه القديم و الأزلي من المهد إلى اللحد سحر و لا سيما أنه لم يتزوج إلى حد هذه اللحظة معتقدا أنها ستعود إليه و تتزوجه كما هي رغبتهما حسبما كان يظن أو كما كان يمني نفسه بذلك ، و الأمر ينطبق عليها أيضا حيث بادلته الشعور ذاته و تحديدا بعدما كثرت سهراتهم خارج إطار العمل تحت ضوء القمر على مقربة من نهر النيل و لاسيما خلال شهر يونيو كما إعتادا في الماضي عندما كانا زملاء و يدرسا معا في المرحلة الثانوية على الرغم من أنها كانت متأخرة عنه بسنتين في ذلك الوقت ليذوب شيئا فشيئا جدار البعد الوهمي الذي صنعه غيرهم بينهما دون أن يعلم فارس الكثير من الحقائق المرة التي كانت تكتنف حياتها السابقة مع زوجها الراحل و تجعله من شدة مرارتها المؤلمة تدفعه إلى إلغائها و إلغاء حبها الطاغي من قلبه المرهف الحس الغير قادر على تحمل أية صدمة عاطفية من هذا النوع .

المحطة الأخيرة

الإرث الثقيل

(ماذا تقولين ؟ !!!)

صرخ صرخة مرعبة إندفعت نيرانها الصوتية الخفية تخترق صدر سحر التي سرعان ما إرتعدت فرائصها من هولها المفاجئ و لاسيما أنها أخبرته بالحقيقة المرة المتعلقة بزوجها أثناء مجيئه إلى منزلها يعرض عليها الزواج للمرة الحادية عشرة طوال حياته ليكتشف أنه كان عمها من دمها و لحمها

(صدقني ، هذه هي الحقيقة)

(عن أية حقيقة تتحدثين ؟! تريدين أن أصدق أنك تزوجت عمك أي شقيق والدك ؟ !! أتعرفين أن زواجك منه يعتبر باطلا شرعا أي أنك كنت تعيشين معه في الحرام ، ماذا دهاك ؟!!!)

(أعرف ....)

(تعرفين ؟!!)

(أجل ، لكني عرفت بهذا الأمر متأخرا و لاسيما أنه خبرني بالمبررات التي دفعته إلى ذلك !!)

(كفاك سخفا ، أية مبررات هذه تبرر تلك الخطيئة الشنيعة ؟!!)

إندهشت سحر من هجوم العنيف صب من خلاله جام غضبه عليها بسيل الشتائم و قبيح الكلام و التي لا يقلها حتى أولاد الشوارع دون أن تدري

حينها أنه كان يخرج ما في جوف قلبه من حرقة و ألم و قهر عاناهم نتيجة تجاهلها المستمر لمشاعره و عواطفه نحوها المغروسة في سويدائه لم تعرف إمرأة غيرها إلى طريقه البتة و زاد ذهولها أكثر عندما إنهال عليها بالضرب و الركل باكيا سيلا من الدموع الجارفة لما حولها قبل أن يندفع لإحتضانها و مسح دموعها ثم حملها إلى الفراش بعدما أغمي عليها من شدة الضرب المبرح ليتركها وحيدة منزلها المتواضع بعدما كان قبل المصادرة قصرا من المرمر و الرخام الزجاجي الهش حيث سرعان ما إنهار تحت وقع الحجارة الصغيرة منها و الكبيرة دون تريث أو خجل من راميها بعدما رأى حاميها قد سقط صريعا أخطائه و أفعاله المشينة التي يندى لها الجبين بحقه و بغيره .

ظل يصول و يجول بسيارته شوارع القاهرة دون توقف أو تفكير بما حدث ، فلقد كان أغرب من الخيال ما سمعه من كلام صدر من لسانه جعلته يغرق في بحر من الأسئلة التي لا أجوبة حاسمة لها بالمرة ، كيف تتزوج رجلا أكبر منها بالسن و بمقام والدها المرحوم ؟! و من من ؟!! من الرجل الذي إضطهدها و إضطهد والدها دون رحمة أو شفقة حتى لأنه إضطهده و جدتها و سلبهما حقوقهم و أراضيهم من ميراث والدهما ؟! و الأنكا من هذا أنه عمها و شقيق والدها ؟!!..... و غيرها من الإستفسارات

و الأسئلة التي جعلته حائرا لا يعرف ما إذا كانت سحر مذنبة فيما فعلت أم لا و تستحق فرصة أخرى للتوبة أم لا ؟!! .....الخ .

كاد أن ينفجر رأسه من شدة التفكير بها لدرجة أنه كان يضرب رأسه على الزمارة في صدر مقود سيارته أكثر من مرة واقفا أمام الكورنيش متسببا بضجة عالية دفعت المارة إلى التحلق حوله قبل أن يصرخ في وجههم و يفروا من وجهه الغاضب غضب بركان فيزوف الهائج على سكان بومبي[١٢] دون ان تخفف دموعه من حرارتها اللاهبة و لاسيما أنه كان يسمع إلى نداء أخر في قلبه يدعوه إلى عدم ترك حبيبته نهائيا و الزواج منها قبل فوات الآوان ، فالذنب ليس ذنبها بل ذنب مجتمع بأسره ملئ بالسلبيات المتوارثة للأسف أبا عن جد على أسس قومية و دينية و تقليدية بالية عفا عليها الزمن و لا تناسب عصرنا الحالي و مهووس بعبادة الطاغية أيا كان فردا أم مجتمعا أم دولة أم شرطة أم حاكما أم قاضيا أم قائدا عسكريا كجزء من الولاء السلبي للدولة المصرية بسلبياتها و إيجابياتها منذ عهد الفراعنة حتى وقتنا الحاضر، إضافة أنها ضحية أخطاء والدها الفادحة بحق أخيه و أمهما جعلتها تدفع ثمن شئ لم ترتكبه و ليس لديها أي ذنب فيه ، إستمر هذا النداء يتأجج في داخله بضراوة معركة حامية الوطيس تدور

[١٢] بومبي : مدينة رومانية تقع في نابولي تعرضت في القرن الأول الميلادي لثورة بركان فيزوف الذي أحرقت حممه الملتهبة سكانها و هم أحياء و دمرت بيوتهم بشكل مروع يشيب له الولدان (المؤلف) .

رحاها بين غضبه العارم و حبه الطاغي نحوها لم تتوقف حتى فجر اليوم التالي ليحسمها بنفسه لصالح الأخير .

لم يطق صبرا على التأخير و تحقيق حلمه الجميل الذي طال أمده و ظل يأسر عقله و قلبه لسنوات عديدة دون أن يتخلى عنه ألا و هو الزواج من حبيبته الغالية غلو البصر عند الأعمى سحر الذي أحبها في سره و جهره حب العبادة ، فإنطلق مسرعا بسيارتها نحو منزلها حصانا هائجا يبحث عن فرسته الأسيرة بيد غيره و لينقذها من براثنه و لاسيما أنه لم ينم البارحة بتاتا من كثرة التفكير فيها ، و ما إن وصل إلى منزلها و صعد إلى غرفتها مهرولا نشوانا جزلانا بعرضه الزواج عليها ليجد شيرين و شقيقه محسن بقربها يبكيان بحرقة طفل جرح نفسه بشفرة حلاقة حادة و قد فارقت الحياة أمامهما قبيل بضع دقائق ، فيتجمد مكانه مذهولا من هول الصدمة و هو يراها ممددة و مسجية على سريرها مبتسمة و هي تحتضن إبريق الشاي الفضي الإيطالي الصنع الذي أهداها إياها في عيد ميلادها عام ١٩٨٨م بشغف كبير طفلا صغيرا يحتضن لعبته أو رضاعته الصناعية و ينام هادئا قريرا العين دون أن يبالي إلى أي إزعاج يقض مضجعه حتى عندما أطلق صرخة مدوية صارخا بإسمها كادت أن تهد نافذة الغرفة و ما حولها من شدة وتيرتها .

ظل فارس بعدما جرى متجمدا ساكنا مذهولا لا ينطق بكلمة واحدة حتى عند تشييع جنازتها إلى مقبرة عابدين حيث مقر سكنها الأخير حاملة في جسدها أسرار عائلتها الدفينة و الغائرة في جروحها الكثيرة التي يبدو أنها ستظل لصيقة بها إلى يوم الدين دون أن ينصفها الناس منها ، فزوجة الطاغية ستظل زوجة الطاغية حتى لو كانت معادية لظلمه و إستبداده و لو على إستحياء و لاسيما أنه لم يحضر جنازتها سوى أفراد عائلة فارس العناني و أشقائه و شيرين إبنة زوجها حتى شقيقها الأكبر رفض الحضور لأنها حسب زعمه أضاعت شرف العائلة المقدس بالنسبة له ، لذا فلا تستحق من وجه نظره زيارة قبرها أو حتى الترحم عليها مشاركا خطيبها السابق نفس الشعور ..... و غيرها من الأمور التي حدثت لها بعد وفاة الطاغية لتنال إلسنتهم الجبانة من جسدها و عفتها دون حياء أو خجل أو إحترام لها و لو على سبيل المجاملة ، لم يكترث فارس لذلك و هو يتأمل جسدها الرقيق الملفوف بالكفن يؤخذ إلى اللحد السفلي تحت تراتيل سورتي الفاتحة و يس ، فيندفع إليها و يمسك بيدها اليمنى ليضع في خنصرها خاتم الزواج الذي إشتراها قبل شهرين من إحدى محلات الذهب بشارع الشواربي عارضا عليها الزواج أمام افراد عائلته المذهولين من تصرفه هذا ، و زاد ذهولهم عندما نزل إلى اللحد خلف جثمان حبيبته المسجي على طبيعته قبل أن يخرجوه منه بصعوبة دون أن يجهلوا مقدار

الحب الهائل الذي يكنه شقيقهم لها الذي لايزال خالدا أبد الدهر فيه حتى بعد أن وافاه الأجل نائما على قبرها بعد ثلاث سنوات من رحيلها الأليم عنه دون أن يتزوج البتة من غيرها لتحل مكانها في قلبه المتعطش لرحيق ذكراها الطاهر إلى الأبـــــد .

(النهـــــايـــــــــة)